الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الخلق يتهارجون[1]، تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر، هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخير، كما يطفىء الماء النار. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عري من حلة التقوى، ومحي عنه طابع الهدى، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع، ولدواعي شيطانه مطيع.

كأنه التيسُ قد أودى به هرمٌ ... فلا لحمٌ ولا صوفٌ تمرُ

وقيل: من فعل ما شاء، لقي ما ساء، وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها. فقالوا له: يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت. قال: قد بلغني أن العزل مكروه. قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لي إذا ذاك بلذة الخلسة، ولقاء المسارقة، وانتظار الموعد؟ وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس، وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك، فقالت: يا سيدي، إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود، ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله. وكانت ظَلَمَةُ القوادة[2] وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك: إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار. قال الزمخشري رحمه الله: أقمت بقمار سنين فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل، وقمار ينسب إليها العود القمار كما ينسب إلى مندل. قال مسكين الدارمي:

ولا ذنبَ للعودِ القماريِّ إنه ... يحرّقُ إن نَمتْ عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر، أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وفي ذلك قيل:

---

(١) يتهارجون: يتلاغطون.

(٢) القوادة: صاحبة ترتيبات للزنا (احترافاً).

إذا لـم تَصُنْ عَرضاً ولـم تخشَ خالقاً وتستحِ مخلـوقـاً فمـا شئـت فـاصنـعِ

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه. وذم الرجل قوماً فقال: وجوههم وأيديهم حديد، أي وقاح بخلاء، ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لـو أنّ لـي مـن جلـدِ وجهِـكَ رقعـةً لجعَلْـتُ منهـا حـافـراً لـلأشهـبِ[1]

وقال آخر:

إذا رُزِقَ الفتـى وجهـاً وقـاحـاً[2] تقلَّـبَ فـي الأمـورِ كمـا يشـاءُ

وقال أنو شروان: أربعةٌ قبائح، وهي في أربعةٍ أقبحُ، البخل في الملوك، والكذب في القضاء، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء، ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب، قال الشاعر:

لا تكـونَـنَّ فـي الأمـورِ هيـوبـاً فـإلـى خيبـةٍ يصيـر الهيـوبُ

وقال علي رضي الله عنه: إذا هبت أمراً فَقَعْ فيه، فإن شراً توقيه[3] أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افترقوا نفعوا. فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم. قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلاّ ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل، أراد السفه. قال الشاعر[4]:

ألا لا يجهلَـنْ أحـدٌ علينـا فنجهـل فـوق جَهْـلِ الجـاهلينـا

وقيل: الجاهل مَنْ لا جاهل له، أي مَنْ لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذا جاء أعرابي فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض.

فقال عمر: ليس بعزيز، مَنْ ليس في قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبـثُ الجهـالُ أن يتهضَّمـوا أخـا الحلـمِ مـا لـم يستَعِـنْ بجهـولِ

وقال صالح بن جناح:

إذا كنـتَ بيـن الجهـلِ والحلـمِ قـاعـداً وخُيِّـرتَ أنّـى شِئـتَ فـالحلـمُ أفضـلُ
ولكـن إذا أنصَفْـتَ مَـنْ ليـس منصِفـاً ولـم يَـرْضَ منـك الحلـمَ فـالجهـلُ أمثـلُ

وقال الأحنف بن قيس:

---

(١) الأشهب: هو الخيل.
(٢) وجهاً وقاحاً: أي وقحاً قليل الحياء.
(٣) توقيه: تجتنبه.
(٤) عمرو بن كلثوم التغلبي.

وذي ضغنٍ أبَيْتُ القولَ عنه ... بحلمٍ فاستمَرَّ على المقالِ
ومَنْ يحلُمْ وليس له سفيهٌ ... يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتَ محتاجاً إلى الحلمِ إنني ... إلى الجهالِ في بعضِ الأحاييِن أحوجُ
ولي فرسٌ للخيرِ بالخيرِ ملجمٌ ... ولي فرسٌ للشرِّ بالشرِّ مسرجُ
فمَنْ رامَ تقويمي فإني مقوَّم ... ومن رام تعويجي فإني معوّجُ

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلتُ للحلمِ موضعٌ ... وحلمُ الفتى في غيرِ موضعِهِ جهلُ

اللهم إنا نعوذ بك أن نجهل، أو يُجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.